أسس الحكم الشوري الموسع في الإسلام

الحلقة الثالثة والعشرون

ملامح الديمقراطية الأثينية وإنجازاتها

بما أن الديمقراطية الأثينية، من خلال ما وصلنا من أوصافها، لا تنفصل عن بيريكليس (Περικλῆς) (Pericles) (490 ق.م – 429 ق.م) نفسه، الذي يعني اسمه: **"المحاط بالمجد"**، فسيكون من الأفيد لنا، دراسة ملامح هذه الديمقراطية من خلال خطبة شهيرة ألقاها الأخير على الأثينيين في حفل تأبيني بعد المعارك الأولى التي خاضتها أثينا في الحرب البيلوبونيسية.

وسأضيف فقط على الديباجة الأصلية للخطبة، بعض العناوين المناسبة، إما من أجل إبراز بعض المفاهيم أو التأكيد على الأفكار الرئيسية الجدير بالذكر أو التنويه ببعض المنجزات لأهميتها الخاصة..

سنن التقليد والاتباع

قال بيريكليس:

سأبدأ بأجدادنا: فمن العدل كما من المناسب أن نخصهم بشرف الذكر في مناسبة مثل هذه، حيث أنهم استوطنوا البلاد من دون انقطاع جيلاً بعد جيل، وسلموها لنا حرة في الوقت الحاضر بسبب بطولاتهم،...

ديمقراطية امبريالية

قال بيريكليس:

وإذا كان أجدادنا الأباعد يستحقون التنويه والثناء فلا شك أن آباءنا يستحقون أكثر لما أضافوه على إرثهم الإمبراطوري الذي ورثناه عنهم، لأنهم لم يدخروا جهدا من أجل تسليمنا التركة التي هي بحوزتنا في الوقت الحاضر.

فرادة الدستور الأثيني

قال بيريكليس:

"دستورنا لا ينسخ قوانين الدول المجاورة، بل نعد نحن في عداد من يجب إن يقلدوا، ما دمنا لا نقلد أنماط الآخرين في الحكم".

تفضيل الكثرة على القلة

قال بيريكليس:

إدارتنا تفضل إفادة الكثيرين بدل الاقتصار على قلة محدودة، وهذا هو السبب في تسميتها بالديمقراطية.

ديمقراطيتنا تكفل عدالة متساوية للجميع

قال بيريكليس:

- **وإذا نظرنا إلى القوانين، فإنها تحمل العدالة المتساوية للجميع بالرغم من خلافاتهم الخاصة ؛**
- **الجدارة وحدها هي المعيار لشغل وظيفة عمومية.**
- **إذا لم يكن للوضع الاجتماعي من مزية، فالتقدم في الحياة العامة يعتمد بالأساس على سمعة القدرات، بحيث لا يسمح للاعتبارات الفئوية أن تتدخل في الاستحقاقات، ولا في أن يقف الفقر حجر عثرة في الطريق،**
- **وإذا كان الرجل قادرا على خدمة الدولة، فلن يحول بينه وبين ذلك غموض نسبه.**

لا مكان للأخ الكبير الأورويلي (Orwellian Big brothers) في الديمقراطية الأثينية

قال بيريكليس:

الحرية التي نتمتع بها في حكومتنا تمتد أيضا إلى حياتنا العادية.

ففي الأخيرة، تجدنا نعف عن ممارسة أي نوع من الرقابة الغيورة على بعضنا البعض، فنحن لا نشعر بأي غضب تجاه جارنا لأنه يفعل ما يحلو له، ولا أننا نلقي عليه نظرات شزرة، لا يمكن سوى أن تكون هجومية، على الرغم من أنها لا تلحق أي عقوبة إيجابية.

مواطنون يحترمون القانون

قال بيريكليس:

وكل هذه السهولة في علاقاتنا الخاصة لا تجعلنا نخرق القانون كمواطنين.

فهذا محذور يعمل لصالحنا، ويعلمنا طاعة القضاة والقوانين، لا سيما فيما يتعلق بحماية الجرحى، سواء أكانوا مسجلين في الواقع في السجلات الرسمية، أو كانوا ينتمون إلى تلك التعليمات الشفهية التي، وإن كانت غير مكتوبة، إلا أنها لا يمكن خرقها دون الوقوع في شرك العار.

الترفيه هو جزء من الحياة

قال بيريكليس:

وعلاوة على ذلك، فنحن نقدم الكثير من الوسائل للعقل للترفيه عن نفسه من الأعمال. فنحن نحتفل بالألعاب ونقدم قرابين على مدار السنة، وأناقة منشآتنا الخاصة تشكل مصدرا يوميا للمتعة، وتساعد على القضاء على الضجر، بينما حجم مدينتنا يجلب إنتاج العالم إلى مرفأنا، حيث صارت ثمار البلدان الأخرى مألوفة للأثينيين، كنوع من الرفاه الخاص.

السياسة العسكرية

قال بيريكليس:

فإذا انتقلنا إلى سياستنا العسكرية، فنحن نختلف عن خصومنا.

فنحن نفتح مدينتنا للعالم ولا نحرم الأجانب من أي فرصة للتعلم أو المراقبة، بالرغم من كون العدو قد يفيد في بعض الأحيان من تحررنا؛ جاعلين ثقتنا في روح مواطنينا وليس في النظام والسياسة.

سياسة التعليم

قال بيريكليس:

بينما في التعليم، وحيث أن منافسينا (الإسبارطيون) يتبعون منذ الصغر نظاما قاسياً من الانضباط بغية التماس الرجولة، فنح في أثينا نعيش بالضبط كما يحلو لنا، ومع ذلك فنحن لسنا أقل استعدادا في مواجهة كل خطر مشروع.

وللتدليل على ذلك، فسكان "لآقيديمونيا" (Lacedaemonians) لا يغزون بلادنا لوحدهم، بل يجلبون معهم جميع الأحزاب الموالية لهم، بينما نحن الأثينيون نتقدم بغير سند في أراضي دولة مجاورة، وقتالنا على أرض أجنبية يجعلنا نقهر بسهولة الرجال الذين يدافعون عن منازلهم. فقواتنا الموحدة لم تواجه حتى الآن من طرف أي عدو، لأن من مشاغلنا الأولى الاهتمام بالبحرية وإرسال مواطنينا عن طريق البر للقيام بعدة خدمات مختلفة، بحيث كلما تعاملوا مع شطر من قوتنا، فالنجاح ضد هذه المفرزة يتحول إلى الانتصار على الأمة، والعكس بالنسبة للهزيمة على أيدي شعبنا كله.

ومع ذلك، فنحن لا زلنا على استعداد لمواجهة الخطر، بحسب العادة وليس بمشقة وإنما بسهولة، وبشجاعة طبيعية ليست مكتسبة بفن.

ثم لدينا ميزة مزدوجة في الإفلات من تجربة المصاعب التي تواجهنا في ساعة الحاجة لتوقعنا بها، دون خوف، كسائر كل من لم يتحرروا منها.

في استخدام الثروة

قال بيريكليس:

كما وأن هذه النقاط، ليست لوحدها ما يستحق فقط الإعجاب في مدينتنا ، فنحن نرعى تفننا من دون إسراف ومعرفة من دون تخنث؛ وغالبا ما نقتني الثروة من أجل استخدامها وليس من أجل عرضها، ونقر بأن عار الفقر لا يكمن حقيقية في الامتلاك ولكن في ضعف الهمة في النضال ضده.

في مشاركة المواطنين في إدارة شؤون الدولة

قال بيريكليس:

لرجالنا العموميين، شؤونهم الخاصة التي يهتمون بها بجانب السياسة، ومواطنونا العاديون، قضاة لا يشق لهم غبار في المسائل العامة على الرغم من مشاغلهم في الصناعة.

لأننا، وعلى عكس أي دولة أخرى التي تنظر لمن يهتم بمثل هذه الأمور؛ إما كفاقدي الطموح، أو كحثالات غير مجدية، فنحن الأثينيون قادرون على الحكم في جميع المناسبات على لأشياء، إذا لم نتمكن من الأصل، وبدلا من النظر إلى النقاش كحجر عثرة في طريق الفعل، فنحن نعتقد أنه لازمة لا غنى عنها في أي فعل على الإطلاق.

ومرة أخرى، فنحن نقدم في مؤسساتنا مشهدا فريدا في الجرأة والتداول، نرفعهما إلى ذرى غير مسبوقة، متحدتان في نفس الأشخاص على الرغم من كون القرار هو ثمرة الجهل ، والتردد من التفكير.

كيف نظر الأثينيون إلى الشجاعة ؟

قال بيريكليس:

ولكن كف الشجاعة سيكون بالتأكيد من نصيب أولئك، الذين يعرفون الفرق بين المشقة والمتعة، والذين لا يتم إغراءهم بالفرار من الخطر.

الصداقة والكرم

قال بيريكليس:

وبخصوص الكرم فنحن الأثينيون نتمتع بفرادة خاصة، حيث جبلنا على منح أصدقائنا ، بدل التلقي منهم. ومع ذلك، وبطبيعة الحال، فالفاعل لصالح صديق هو أقوى الاثنين، وذلك لأنه من خلال رعاية هذا اللطف فإنه يحفظ على المتلقي دينه، بينما يظل المدين يشعر بوعي أن رده للدين سيكون بمثابة الدفع وليس هدية مجانية.

وليس سوى للأثينيين، الذين لا يعرفون الخوف من العواقب، أن يمنحوا الفوائد ليس من منطلق حسابات نفعية، ولكن في ثقة من التحرر.

بناء قوة الدولة من خلال العادات الجيدة

قال بيريكليس:

أقول باختصار: إننا كمدينة نعتبر من خريجي مدرسة هيلاس، وبينما أشك في أن العالم يمكن أن ينتج رجلا يعتمد فقط على نفسه، ومنعم عليه بمهارات متنوعة كالأثيني، ويستطيع أن يجابه كل هذا العدد الجم من حالات الطوارئ، فهذا ليس مجرد تفاخر بهذه المناسبة بل عين الواقع، وهو ما يثبت متانة الدولة بسبب هذه العادات المكتسبة.

هذه هي أثينا التي عزم هؤلاء الرجال على عدم خسرانها، وقاتلوا بنبل وماتوا من أجلها، عسى أن يكون كل واحد ممن عاش بعدهم على استعداد ليعاني في قضيتها.

الحنين إلى الانتقام

قال بيريكليس:

لكن أيا من هذه، لا الثروة، مع احتمال التمتع بها في المستقبل تثير التوتر في روحه ، ولا الفقر ، مع ما يصاحبه من أمل في إمكان الخروج منه والتمتع بالحرية، ولا الغنى وإغراءاته بالفرار من الخطر.

لا، فالأثينيون ظلوا يعتبرون أن الانتقام من أعدائهم مطلب مرغوب فيه فوق أي اعتبار شخصي آخر, ومقدرين بأنه من أكثر المخاطر المجيدة مطلبا، ومصممين بفرح على القبول بنتائجه، للتأكد من الانتقام، وبالسماح لرغباتهم بالانتظار؛ على الرغم من الالتزام بأمل عدم التيقن من النجاح النهائي في الأعمال التجارية التي كانوا يعتقدون أن من المناسب العمل بجرأة وثقة في أنفسهم.

نموت مقاومين، ولا نعيش مستسلمين

قال بيريكليس:

فهم باختيارهم أن يلاقوا الموت مقاومين، بدل العيش مستسلمين، قد فروا فقط من العار ، ليلتقوا وجها لوجه مع الخطر.

وبعد لحظة واحدة وجيزة، وبينما هم في قمة مسعاهم، نجوا ، ليس من الخوف ، ولكن من مجدهم .....

البؤساء ليس لهم ما يطمحون فيه

قال بيريكليس:

فاجعل هؤلاء نموذجاً خاصاً بك، وباعتبار أن السعادة هي ثمرة للحرية وحرية الشجاعة، فلا ترفض أبدا مخاطر الحرب. لأنه ليس من شأن البئيس أن يكون قاسيا على حياته، فهذا ليس له أمل : بل هم بالأحرى أولئك الذين قد تجلب لهم الحياة المستمرة مقالب غير معروفة حتى الآن، والذين يعني السقوط، متى حل بهم، بأنه سيكون أعظم في عواقبه. وبالتأكيد، فبالنسبة للعاقل، فإن وصمة عار الجبن يجب أن تكون أكثر بما لا يقاس من ألم موت لا يشعر به الميت، والذي يضربه في خضم قوته ووطنيته!

الصمود في أوقات الفجيعة والحزن

قال بيريكليس:

لذلك، فالمواساة، وليس العزاء، هو ما يجب أن تقدم لأهالي القتلى الذين قد يكونون هنا.....

لأنها ليست سوى محبة الشرف الذي لا يمكن أبدا أن يبلى، وهو الشرف ليس غيره، فهو ليس ربحا، كما يتمنى البعض. وهو ما يفرح قلب الزمان مع قلة الحيلة.

النموذج اليوناني للمرأة

قال بيريكليس:

من ناحية أخرى، إذا كان لا بد لي أن أقول أي شيء لمن أصبحن الآن أرامل، حول موضوع تميز المرأة، فسألخصه في هذا الوعظ الوجيز.

سيكون مجدك الأعظم في عدم الوقوع تحت ما لم تعدك له الطبيعة وعظيمة ستكون تلك التي قل الحديث عنها بين الرجال ، سواء في تعداد محاسنها أو مساوئها.

رعاية الدولة لذرية قتلى الحرب

قال بيريكليس:

إذا كانت الأفعال تستجدي السؤال، فإن أولئك الذين دفنوا هنا قد أخذوا جزءا من تكريمهم بالفعل، وبالنسبة للبقية، فإن الدولة ستتكلف بتربية أطفالهم حتى الرجولة على حساب الميزانية العامة: فالدولة توفر بالتالي جائزة قيمة، كإكليل النصر في هذا السباق في الشجاعة، لمكافأة كل الذين وقعوا في ساحة الوغى وورثتهم.

وحيثما كانت مكافآت الجدارة أعظم، فهناك يوجد أفضل المواطنين.

قلت:

لاحظ هذا المستوى الرفيع من التشخيص والوصف والعرض، والقدرة على تطويع اللغة، بما ليس عليه مزيد، وكأننا نستمع إلى سياسي محنك معاصر، مع أن الرجل عاش قبل 2500 سنة!.

انتهى

على أن يستمر في الجزء الرابع والعشرين انتقادات الديمقراطية الأثينية